

الدكتور ادريس حمروش : المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة

اللغة ومناهجها المعرفية

كل دراسة لغوية غايتها فهم النص وتجليته وكشفه، ولذلك اتخذ الدرس أساليب مختلفة وطرقا متعددة، كل منها يرمي من جانبه إلى جلاء شريحة فيه، وما تفسر جوانب الدرس اللغوي إلى صوتي، ونحوي، ومعجمي، ودلالي إلا محاولة لتعرف هذه الجوانب مفصلة، بحيث يعاد جمعه من جديد لتقديم صورة واضحة كاشفة للنص المدروس.

والنص وحدة متلاحمة ضمن أنظمة تحكمه، وأن صورته المنطوقة هي "مفرداته" المصوغة في الجملة بكل خصائصها؛ هذه المفردات وقوانينها الصوتية والصرفية، ودلالاتها المعجمية الأولية الموضوعية، والتلاحم بين المفردات ووظائفها في الجملة، هو تفاعل دلالي نحوي معا لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لأن المفردات من غير نظام نحوي يحكمها ويربط ما بينها، لا يتأتى لها اجتماع إلا في التنظيم المعجمي فحسب، والتنظيم المعجمي عمل لا يقوم به المتكلم، بل يقوم به الباحث اللغوي. والنظام النحوي من غير مفردات وعاء فارغ، ولا يقوم إلا في عقول أبناء اللغة، ولا يجد سبيلا لتحقيقه إلا في الجمل التي ينطق بها أبناء اللغة أو يكتبونها، وبينهم اتفاق جماعي عليها.

وقد فطن كبار النحاة إلى أن الخبرة بتراكيب العربية هي في الوقت ذاته خبرة بالأغراض التي تعبر عنها اللغة، وبعبارة ثانية، أدرك النحاة أن هناك التحاما بين ما يسمى تراكيب، وما نسميه باسم المعاني أو الخواطر، فالمعقولات العامة لم تكن عائقا يعوق النحاة دون الإحساس الواضح أو المبهم بالصلة المتبادلة بين ما كان يسمى أحيانا باسم المعنى، وما يسمى باسم اللفظ، وظل إحساس النحاة بالاختلاف في إدراك المعاني حافزا يحفزهم إلى التمييز بين التراكيب أو التنويع القائم في بنية اللغة. ظل إحساس النحاة قائما بالعلاقة المتينة بين ما يسمى باسم اللغة، وما يسمى باسم الأغراض والمعاني، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني، وألف كتابه "دلائل الإعجاز"، فجمع هذه الإشارات في نظرية محكمة بينت أن محتويات اللغة لا تتضح في خارج الفوارق في الاستعمالات النحوية.

وفي هذا الاتجاه ذهب رتشارد بلاكور في كتابه "ثمن العظمة"، فيما ينقل عنه ستانلي هايمن: "لابد أن تكون الكلمات، وطرق ترتيبها ونواتجها، هي المصدر الأكبر المباشر لكل ما تتضمنه الفنون المكتوبة أو المحكية من تأثير، فالكلمات هي التي تلد المعاني محمولة فيها... واستعمال الكلمات عند الفنان يمثل مغامرة في سبيل الكشف والخيال وثاب، وهو يجوس بين الكلمات التي يمارسها، غير أن المغامرة في حقيقة الكلمات تسعفنا على شيء أبعد من حقيقتها بمعنى أننا نستطيع من خلالها أن نميز صورة حقيقتها الموفقة من صورها الأخرى المحققة. ونستطيع أن نقيس أنواع الحقيقة التي حاولناها ومدى قوتها، بل نستطيع أن نحس على وجه ما أحوال العرف والمعتقد الضروريين لإيجدها وانبثاقها"¹.

وفي هذا النص يعتمد صاحبه على آخرين في كشف ما تتضمنه الفنون القولية عامة:

● الكلمات: وهي المفردات اللغوية بكل ما تحمله من دلالات أولية عن طريق

استعمالها.

● طرق ترتيب هذه الكلمات وتواشجها، وهذا يعني هيئتها التركيبية، لأن

الكلمات لا تترتب إلا في جمل بينها تواشج أو علاقات نحوية، توجد للكلمة قرائنها

السياقية التي تظهر بها.

فبناء الجملة هو الذي يكشف عبقرية الشاعر، ويظهر تفرد وامتياز، إن الشاعر الفرد عليه أن

يشق طريقه المتميز من خلال كم المفردات الهائل الذي استخدمه قبل مئات الشعراء، ومن خلال

الأنظمة النحوية المحدودة، وعليه أن يختار بينها ما يجعله فريدا متميزا.

وكم من الكلمات تستعمل عند عدد من الشعراء، ولكنها في بعض الشعر تكون متألثة

مشعة، مشحونة بالدلالات لأنها صادفت بناء دقيقا وموقفا نحويا سليما.

¹ - ستانلي هايمن. النقد الأدبي ودارسه الحديثة 10/2 ترجمة إحسان عباس، دار الثقافة

بيروت ط3، 1978م.

وتكون هي نفسها في بعض الشعر الآخر قائمة منطفة غير موحية، ولا نافذة لأنها تصادف موقفها الملائم ولا بنائها المناسب.

فليست القيمة في المفردات في ذاتها، ومن حيث هي كذلك، ولا في النظام النحوي في ذاته، ومن حيث هو كذلك، ولكنها في الاختيار الدقيق بين المفردات والنظام النحوي.

وقد تناول سيبويه في أول مدونته النحوية الكبرى "الكتاب" أحد النصوص الأمهات التي تعد بذرة لنظرية كبرى في الدلالة، وأعني به ما أطلق عليه "باب الاستقامة من الكلام والاحالة"، ومن خلال مناقشة هذا النص نستطيع أن نتعرف على القوانين المنظمة للنظام اللغوي، يقول :

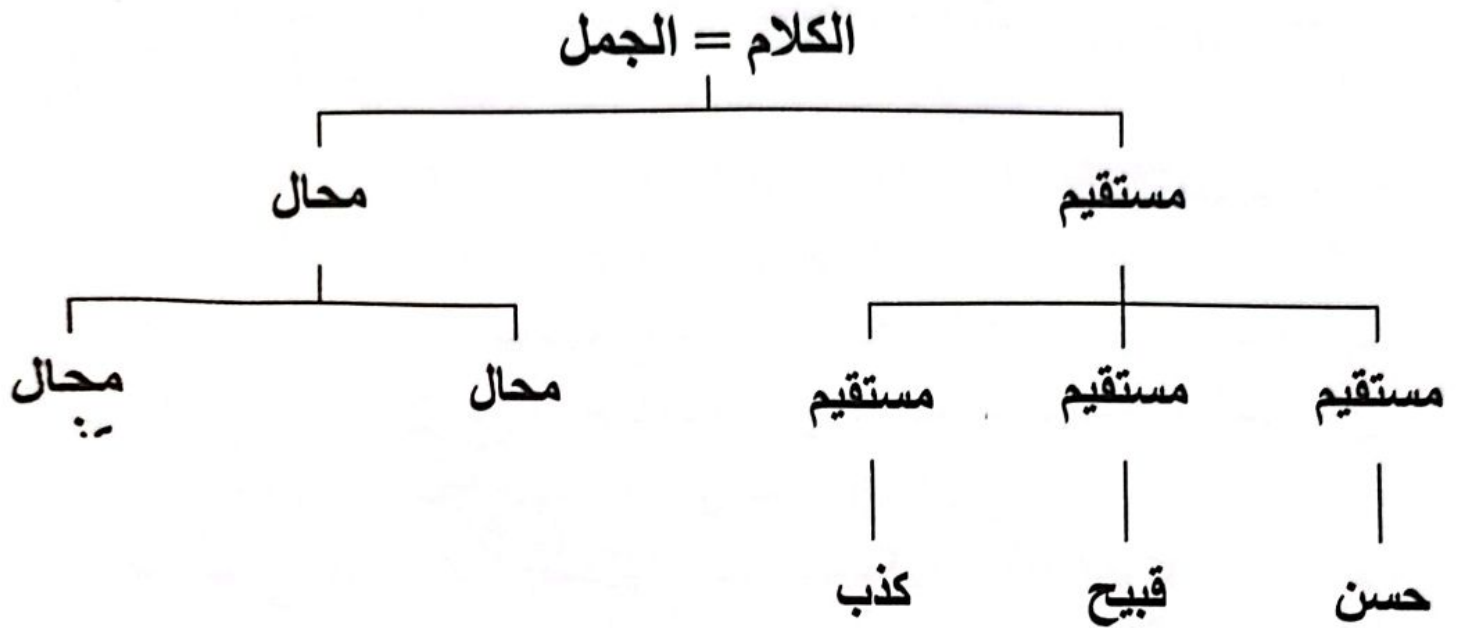
"فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب".

فأما المستقيم الحسن؛ فقولك: "أتيتك أمس، وسأتيك غدا وأما المحال؛ فإن تنقض أول كلامك بآخره"، فتقول: "أتيتك غدا، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب؛ فقولك: "حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه".

وأما المستقيم القبيح، فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: "قد زيدا رأيت، وكى زيداً يأتيك". وأشباه هذا.

وأما المحال الكذب؛ فإن تقول: "سوف أشرب ماء البحر أمس"(1).

هذه التقسيمات الخمسة للكلام التي قدمها سيبويه تدور حول الاستقامة والاحالة. والكلام عنده -وهو هنا بمعنى الجمل- قسمان، أحدهما أطلق عليه الوصف بأنه "مستقيم" والآخر "المحال" وتحت كل منهما فروع كما يتضح في هذا الشكل :



وسيبيوه لم يُعرف من هذه الأنواع إلا "المحال" من الكلام و"المستقيم القبيح" واعتمد على الأمثلة وحدها في تحديد ما يريده بالمصطلحات الأخرى. ونستطيع أن نقول إن المقصود من "الكلام المستقيم" بناء على تمثيل سيبويه وتعريفه "للمستقيم القبيح" هو الكلام المستقيم استقامة نحوية دلالية، فالكلام المستقيم نحويا تتوزع استقامته على ثلاثة أنواع : المستقيم الحسن أو المستقيم الكذب، والمستقيم القبيح.

فكل جملة صحيحة "نحويا" تعد جملة مستقيمة، لكن الحكم على هذه الاستقامة بالحسن أو بالكذب يتعلق بالمعنى الذي تفيدته عناصر الجملة عندما تترابط نحويا، وقد قدم سيبويه لكل حالة مثالين إلا "المحال الكذب" فقد قدم له مثالا واحداً.

ومن الواضح أن العلاقة النحوية تبدأ في الوضوح من أول خطوة يتم فيها وضع كلمة مع كلمة أخرى في جملة. وأعني بالعلاقة النحوية ما يحددها ويساعد على تمييزها من المطابقة والرتبة والعلامة الإعرابية وغير هذا وذاك من القوانين النحوية الفرعية التي تغدي الوظيفة الأم "العلاقة النحوية".

والعلاقة النحوية هي التي تحدد نوع التركيب، "وذلك أن التركيب على ضربين : تركيب أفراد، وتركيب إسناد. فتركيب الأفراد أن تأتي بكلمتين فتركبهما وتجعلهما كلمة واحدة بإزاء حقيقة واحدة بعد أن كانتا بإزاء حقيقتين، وهو من قبيل النقل ويكون في الأعلام نحو "معد يكرب" و"حضر موت" ولا تفيد هذه الكلمة بعد التركيب حتى يخبر عنها بكلمة أخرى، نحو : "معد بكرب مقبل" و"حضر موت طيبة" -وهو اسم بلد باليمن- وتركيب الإسناد أن تتركب كلمة مع كلمة تنسب إحداها إلى الأخرى"¹.

وقد نتوسع في "تركيب الأفراد" بحيث يمكن أن نطلق عليه "المركب الاسمي"، وهو كل مجموعة وظائف نحوية يرتبط بعضها ببعض لستم معنى واحداً يصلح أن يشغل وظيفة نحوية واحدة أو عنصراً واحداً من عناصر الجملة، بحيث إذا أفردت هذه المجموعة وحدها لا تكون جملة⁽²⁾ مستقلة.

وبذلك ينتقل المركب الاسمي بوصفه عنصراً واحداً من عناصر الجملة إلى مجال دلالي مختلف قد يتسع وقد يضيق فيصبح صالحاً للتبادل مع كلمات أخرى، ويصبح صالحاً للاستجابة الوظيفية في علاقة نحوية مع مجموعة من مجالات دلالية أخرى.

ولقد اكتفى سيبويه بهذه الإشارة السريعة، ولم يعد إليها فيما بعد في الكتاب، لأن هذه المتابعات الصوتية التي تؤلف جملاً غير صحيحة دلالياً مثل : أتيتك غداً، و"سوف آتيتك أمس" و"حملت الجبل" و"شربت ماء البحر" و"سوف أشرب ماء البحر أمس" ليس لها معنى مفيد، وينبغي أن يتوجه الجهد والاهتمام والعناية إلى ما له معنى من الكلام، ولكن سيبويه بهذه الأمثلة أشار إلى الأساس التي يعتمد عليه في التفرقة بين ضربين من الكلام. ومهما يكن من أمر فإن سيبويه بهذه

¹ _ شرح المفصل لابن يعيش، 20/1 .

2 _ في بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، ص 78، 260، دار القلم، الكويت: 1982م.

اللمحة الدالة يؤكد ما أكدته التحويليون التوليديون فيما بعد من أن "الهدف الأساسي في التحليل اللغوي يمكن في عزل التتابعات النحوية التي تكون جملا للغة من التتابعات غير النحوية التي لا تكون جملا للغة، وفي دراسة بناء أو تركيب التتابعات النحوية. ونحو اللغة سيكون هو الوسيلة التي تنتج كل التتابعات النحوية للغة ويبين عدم نحوية ما ليس نحويا منها"(1).

وسيبيوه في نصه السالف لم يشر إلى انتقال مستوى الكلام من الحقيقة إلى المجاز عن طريق كسر قانون اختيار المفردات، ولذلك فإن نظريته عن "المعنى النحوي الدلالي" تكتمل جوانبها إذا ضمنا لهذا النص السالف ما يقوله سيبويه نفسه عما يسميه "اتساع الكلام" وهو مصطلح يتردد كثيرا في "الكتاب" ويمثل له سيبويه بأمثلة مختلفة يفهم منها أن هذا المصطلح له مدلول واسع. وتحت اتساع الكلام هذا يندرج ما وصف به الشاطبي كتاب سيبويه بأنه تناول مقاصد العرب ونبه عليها، وأن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد امتد كلامه إلى أنحاء تصرف العرب في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب ونحو ذلك، بل إنه كان يبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علمي المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني(2).

بعض أمثلة سيبويه عن "اتساع الكلام" هي التي تكتمل بها نظريته أو أصول نظريته عن المعنى النحوي الدلالي. ويستلفت النظر أن سيبويه يقول عن هذه الأمثلة : "وهذا الكلام كثير، منه ما مضى وهو أكثر من أن أحصيه، ومنه ما ستره أيضا فيما يستقبل إن شاء الله"(3).

وقد قال هذا بعد أن ذكر أمثلة مختلفة للاتساع في الكلام والإيجاز والاختصار : "ومن ذلك قولهم : أكلت أرض كذا وكذا وأكلت بلدة كذا وكذا. إنما أراد : أصاب من خيرها، وأكل

(1) : Chomsky/ Syntactic Structures, P. 13.

(2) : الموافقات لأبي اسحاق الشاطبي، 115/4، 116.

(3) : الكتاب، 212/1.

من ذلك وشرب"، فوقوع الفعل : "أكل" على "الأرض" مفعول به، وعلى كلمة "بلدة" مفعولا به : كذلك هو الذي دفع سيبويه إلى تفسيره بقوله : إنما أراد : أصاب من خيرها.

وأكل من ذلك وشرب أي أن التعبير انتقل من مستوى إلى مستوى آخر، فلم تعد دلالة الألفاظ الأولية المنطوقة هي المرادة هنا، وإنما المراد شيء آخر قريب من الدلالة الأولية، وله به صلة، وقد استغل تفاعل العلاقات النحوية مع دلالات المفردات الأولية في إفادة هذا المعنى الجديد، فالأكل لا يقع من "متكلم" على "الأرض" أو على "البلدة" ويكون المقصود هو المعنى الأولي "الحرفي" وقد صارت "الإصابة من الخير" هي المعنى النحوي الدلالي "لأكل الأرض" وهكذا.

وقد ذكر سيبويه أمثلة مختلفة من القرآن الكريم والشعر، وهذا الضرب من الكلام كثير كما قال وهو أكثر من أن يقع عليه الحصر أو الإحصاء، وعدم وقوعه تحت طائفة الحصر سببه أنه جانب إبداعي متكرر متجدد، وإنما يشير سيبويه فقط إلى طريقته لا إلى حصر أمثله فهي لا تحصر، كما أشار من قبل إلى طريقة خروج الكلام إلى القبح أو الإحالة أو الكذب، ومن أمثلة سيبويه لاتساع الكلام قوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (1) وهنا وقع السؤال على القرية والمراد سؤال أهل القرية.

وقوله تعالى : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (2) حيث أضيف المكر إلى الليل والنهار، والليل والنهار لا يمكن أن بل يقع فيهما المكر.

وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ (1) حيث أخبر عن البر بقوله "من آمن" والمقصود : ولكن البربر من آمن، وقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ (2).

(1) : سورة يوسف الآية 82.

(2) : سورة سبأ الآية 33.

وقد قال في تفسيره "فلم يشبهوا بما ينطق وإنما شبهوا بالمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى" (3).

وعبارة سيويه "لعلم المخاطب بالمعنى، عبارة ذات أبعاد في دلالتها النافذة، فقد يفهم أن مراد سيويه أن يقول إن سعة الكلام -مع كثرتها التي أشار إليها وعدم وقوعها تحت دائرة الحصر- أي الانتقال من مستوى إلى مستوى، أو التجاوز في إيقاع العلاقات النحوية بين ما لا تقع فيه عادة، أو إن شئت كسر قانون الاختيار بين المفردات بالطريقة المسموح بها لا يسوغه إلا فهم المخاطب، ومعنى ذلك أن هناك اتفاقا بين المتكلم والمخاطب أبرمه الاتفاق اللغوي ونظامه وقوانينه على علاقات لغوية معينة عندما تجرى في مجالها المؤلف يكون لذلك دلالة خاصة،

وعندما لا تجري في مجالها المؤلف -ويكون ذلك أيضا بقانون خاص- فإنه يشترط أن يكون المخاطب فاهما للمعنى، ولا يفهم المخاطب ذلك إلا إذا كان هذا التجوز أو كسر الاختيار من العرف اللغوي، أي من سليقة المتكلم و المستمع معًا وكفاية كل منهما اللغوية، وهذا هو الجانب الإبداعي في اللغة.

إن تقسيم جوانب البحث اللغوي، واختصاص كل فريق بجانب يُشغل به دون الاهتمام بغيره أو الإفادة منه مزق النص المدروس، وأفقد كل جانب من جوانب البحث غايته.

إن التقارب الذي يحدث في هذه الأيام بين دراسي النصوص ونقادها من جانب، وبعض اللغويين من جانب آخر من خلال ما يعرف بالدراسة الأسلوبية يتم واللغويون لا يشاركون فيه بقليل ولا كثير، لأن الفئتين السابقتين أخذتا دورهم الحقيقي ونهضتا بما كان يجب أن ينهضوا به. وأعني بهاتين الفئتين فئة النقاد الذي يتجهون لتحليل الأدب تحليلا لغويا، وفئة اللغويين الذين

(1) : سورة البقرة الآية 177.

(2) : سورة البقرة الآية 171.

(3) : الكتاب، 212/1.

يجعلون من الأدب مجالا لدراستهم، إن النحويين الآن يقفون على باب اللغة يحرسون الصواب والخطأ ويتشددون في الحراسة على حين اعتليت الأسوار من الخلف وأخذ كل شيء تقريبا.

ولعل ما يستلفت النظر أن المشتغلين بالنصوص في القديم والحديث ممن لا يعدون نخاة بطبيعة الحال هم الذي يقدرّون النحو حق قدره، وذلك لأنهم هم الذي يعرفون بالتجريب طاقة النحو المبدعة في أضواء النص وتفسيره، في بحث لعنوان "النحو والشعر" يقول أحد النقاد المعاصرين، وهو الدكتور مصطفى ناصف إن الفهم الأدبي ظل إلى عهد عبد القاهر الجرجاني أماني مهمة لأنها لا تحسن البحث عن الأدوات، ومن أهم هذه الأدوات النحو "فالنحو ليس موضوعا يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأيا واحدا، النحو مشغلة الفنانين والشعراء، والشعراء والفنانون هم الذين يفهمون النحو، أو هم الذين يبدعون النحو، فالنحو إبداع" (1).

النحو إبداع حتى لأولئك الشعراء الذين لا يزالون يعتقدون أن "قيود النحو والصرف من عوائق الخلق الشعري" (2)، فالشاعر وهو يتمرد على قواعد النحو ويجانفها أحيانا عامداً أو غير عامد مبدع فيه، لأن الشعراء "يستخدمون القواعد النحوية بوصفها نقطة انطلاق ينطلقون منها، يوترونها ويجربون بها محاولة الحصول على أكثر الطرق فعالية وتأثيراً لقول ما يريدون" (3).

وبهذا المعنى يكون النحو إبداعاً في كل حالة من حالات الشاعر.

(1) : مصطفى ناصف، لنحو والشعر، قراءة في دلالات الإعجاز، ص 36، مجلة فصول، العدد: 3 أبريل

1981م.

(2) : أندري ميكال، الأدب العربي، ص 116، ترجمة رفيق بن وناس وآخرين، تونس 1980م.

(3) : Paul Roberts, Modern Grammar, P. 8 (New York 1968).

والإبداع النحوي يربط بين "النظام" الثابت "والأداء" المتغير، فهناك نظام أو نموذج فكري لا يتحقق ولا يظهر للواقع إلا عن طريق الاستعمال.

وذلك بعودة النحو العربي لوجهه المشرق، النحو الذي طبقه سيبويه كما وصفه الشاطبي والذي عرفه ابن جني بأنه : "انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره" (1)، والذي عرفه السكاكي بأنه "معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً" (2).

وقد شرح كيفية التركيب بأنها تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وشرح هذين التعريفين يتضمن أموراً كثيرة.

ولقد أرشدنا إلى غاية النحو الحقيقية كثير من العلماء غير النحاة، وهم دائماً ممن يعنون بالنصوص وشرحها وتفسيرها، ومن هؤلاء ابن حزم الظاهري الذي يرى أن النحو هو "ترتيب العرب لكلامهم الذي به نزل القرآن، وبه يفهم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ" (3)، ومن هؤلاء أبو حامد الغزالي الذي يرى أن النحو "يفهم به خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال إلى حد يميز بين صريح الكلام ومجمله، وحقيقته ومجازه، وعامه، وخاصه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيده، ونصه وفحواه، ولحنه ومفهومه" (4).

لكن هذه الآراء وإن فهمت هذا الفهم في معالجتهم للنصوص التي يتناولونها، غير أن هذه الآراء الناضجة ظلت نظرات فردية لم يتح لها أن تجمعها نظرية محكمة تفصل عناصرها بالتحليل، وتجعلها ممكنة التطبيق بصورة منتجة.

(1) : ابن جني، الخصائص، 34/1.

(2) : السكاكي، مفتاح العلوم، ص 33.

(3) : ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، 693/2، مطبعة العاصمة، القاهرة.

(4) : أبو حامد الغزالي، المستصفى، 352/2، بولاق.

إن التطور الذي حققته غاية النحو في العصر الحديث ليس في حقيقة أمره إلا رجوعا إلى الفطرة والنظر الصحيح، وإلا فما الذي يجعل تشومسكي المعاصر يلتقي مع ابن جني وابن هشام وغيرهما. وأن يكون النحو نظرية حقيقية لأحد الأبنية المعرفية التي يحققها التكلم الخاص باللغة.